الأسس المنهجية
للتعامل مع الآخر في الفكر الإسلامي

بحث مقدم من

سماحة الدكتور الشيخ تيسير التميمي

قاضي قضاة فلسطين
رئيس المجلس الأعلى للقضاء الشرعي
رئيس المركز الفلسطيني لحوار الأديان والحضارات

إلى ندوة

{ الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي }

التي تنظمها كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الشارقة

في الفترة من ١٦-٢٠٠٧/٤/١٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه وسار على نهجه إلى يوم الدين ،
وبعد ؛
فقد اخترت المشاركة بهذا البحث في الندوة العلمية التي تنظمها كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة الشارقة لهذا العام بعنوان [الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي] أتناول فيه المنهج الذي أرسى الإسلام مبادئه للتعامل مع الآخرين .

يعتقد بعض الناس في الغرب بأن الإسلام دين كراهية وعنف وتحريض وإرهاب ، ومصدر تهديد للاستقرار والازدهار في العالم المعاصر ؛ ويمثل عقبة في طريق إحلال السلام العالمي .

وهذه هجمة استعمارية من نوع جديد يواجهها المسلمون اليوم ؛ بهدف السيطرة على ثرواتهم وإمكاناتهم ومقدراتهم ومقدساتهم ؛ تتمثل في التهم الباطلة التي يلصقها الأعداء بهذا الدين الحنيف وأتباعه ، فتارة يتهمونه بأنه دين إرهاب ؛ وتارة يتهمونه بأنه يدعو إلى العنف وانتهاك حقوق الإنسان ؛ بل إنهم وصفوا الحضارة العربية الإسلامية بأن فيها من التخلف ما يجعل أصحابها غير متحضرين ؛ مما يدل على افتقارهم إلى الإنصاف والموضوعية والحياد واحترام الرأي الآخر .
والغرب الذي يقود هذه الهجمة يجهل حقيقة الإسلام وحقيقة مبادئه السمحة ، بل يتجاهلها ليبرر عدوانه على الأمة لتحقيق أطماعه وتوجهاته الاستعمارية ؛ وهو من أكثر الأمم معرفة بها ؛ فقد اقتبس منها وتعلم على يديها ، وعاش بجوارها وفي ظل حضارتها ، ونَعِمَ بعدالتها يوم أن كانت في أوج عظمتها وقوّتها ، ولو لم تحترم هذه التعاليم والتشريعات الإسلامية غير المسلمين لما أبقت منهم أحداً ؛ ولاندثرت آراؤهم وأفكارهم كما اندثر غيرها على أيدي الغزاة من الجبابرة .

فالتاريخ يذكر لنا مثلاً أن أهل الكتاب تمتعوا في ظل الدولة الإسلامية بحقوق المواطنة الكاملة ؛ وتبوأوا فيها مناصب رفيعة وبالأخص إدارة الدواوين : فقد كان شيخ المترجمين حنين بن إسحق النصراني يرأس مؤسسة دار الحكمة التي أنشأها الخليفة المأمون ، وكان منهم أطباء وشعراء مقربين إلى الحكام ، فالأخطل مثلاً كان شاعر البلاط لبعض خلفاء بني أمية .
وعاش اليهود عصراً ذهبياً في ظل دولة الإسلام في الأندلس حيث ساعدت أجواء الحرية والتسامح في ازدهار آدابهم ولغتهم وفقههم ، بل وصلوا أعلى المراكز كوزارة الدولة ورئاسة الوزراء .

فيقتضي الأمر والحالة هذه تجلية موقف الإسلام من العلاقة بالآخر والتعامل معه ، وتوضيح بعض معالم منهج الإسلام في ذلك :

التعدد بين الناس في معتقداتهم وتصوراتهم من مقتضيات حكمة الله البالغة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، وتعدد ثقافاتهم وحضاراتهم سنة كونية ثابتة ، والاختلافَ بينهم إذن حقيقة واقعية ومشهودة .

وعلى ذلك فوجود المخالف للإسلام أمر طبيعي ؛ لا بل ضروري لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٢) ، والنتيجة المنتظرة لهذا الاختلاف إثارة النقاش والجدال ، فتلك صفة ملازمة للإنسان لا تنفك عنه في الحياة الدنيا ؛ قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ (٣) ، ومستمرة معه إلى الحياة الأخرى ؛ قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ (٤) .

وبالرُّغم من ذلك فينبغي لهذا التعدد والاختلاف ألاَّ يزرع الحقد والكراهية ، أو الرغبة بالقضاء على المخالف ، بل يجب أن يعمق بينهم التعارف ، وأن يوجد مساحة مشتركة للّقاء والتقارب والتعاون ، فهو السبيل إلى عمارة الكون وتحقيق وظيفة الاستخلاف في الأرض بمعناها الشامل ، والدليل على ذلك أن الإنسان صنع الحضارة الكونية على تنوّع نماذجها وتسارع تطورها بمشاركة الآخرين عبر الأزمنة الماضية والأمم الغابرة .

ومعلوم أن عالمية الإسلام وعموم رسالته للناس كافة أسهمت بفاعلية وواقعية في توجيههم جميعاً نحو التوحد على مستوى الكون ، وفي تجميع طاقاتهم وتضافر جهودهم لمصلحة الإنسانية .

ومن الأدلة على هذا التوجه تكرار الخطاب بيا أيها الناس في النصوص الشرعية ، ففي القرآن الكريم زاد تكرار هذا الخطاب عن عشرين مرة ، ومن الأمثلة عليها :

١- ففي إشارة إلى وحدة أهل الأرض جميعاً في أصل نشأتهم ووجودهم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٥) .

٢- وفي تقرير لعموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالمين قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٦) .

٣- وفي كفالة حق الاختيار بين الإيمان والكفر للإنسان بكامل إرادته الحرة وتحمل مسؤولية ذلك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٧) .

أما الأحاديث النبوية التي تتضمن هذا الخطاب فكثيرة جداً ، أستعرض بعضها :

---

(١) يونس ٩٩ .
(٢) هود ١١٨ .
(٣) الكهف ٥٤ .
(٤) الكهف ١١١ .
(٥) النساء ١ .
(٦) الأعراف ١٥٨ .
(٧) يونس ١٠٨ .

١- ففي توجيهٍ إلى إيثار الأمن وإيحاءٍ بالميل إلى السلم ؛ وترغيب بالجهاد إذا توفرت دواعيه قال صلى الله عليه وسلم : { أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف } (١) .
٢- وفي حجة الوداع خطب صلى الله عليه وسلم : { يا أيها الناس أيُّ يومٍ هذا ؟ قالوا يومٌ حرام ، قال فأيُّ بلدٍ هذا ؟ قالوا بلدٌ حرام ، قال فأيٌّ شهرٍ هذا ؟ قالوا شهرٌ حرام ، قال فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، فأعادها مراراً } (٢) .
٣- وبياناً لمغبة الظلم ومآله في الآخرة قال صلى الله عليه وسلم : { يا أيها الناس إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة } (٣) .

احترام الآخر

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس .
(٢) رواه البخاري في كتاب الحج باب الخُطبة أيام منى .
(٣) رواه أحمد في مسند المكثرين من الصحابة .

والآخر الذي اعترف به الإسلام هو المسلم المخالف لنا في الرأي والاجتهاد ، أو غير المسلم المخالف لنا في الدين والاعتقاد . وفي الحالين فقد احترم الإسلام هذا الآخر باعتباره الإنسان الذي خلقه الله وكرمه وأسجد له ملائكته ، واستخلفه في الأرض وذللها له ، وهذا ينطبق على كل إنسان مهما كان عرقه أو دينه أو لسانه . ومن أوضح مظاهر احترام الآخر كفالة حقه في الاحتفاظ بهويته والدفاع عن شخصيته ، والتمسك بحضارته :

(١) فرغم تحمل نتيجة الاختيار مسؤولية القرار ولو بالميل إلى الكفر والضلال ؛ فإن القرآن الكريم يحترم إرادة الإنسان ؛ قال تعالى : ﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) .

٢- سمى القرآن الكريم الكفر دِيناً ؛ حتى في السورة التي حملت قرار المفاصلة والتميُّز بين الإيمان والكفر ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٢) .

٣- نوَّه القرآن الكريم بربانية الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه على رسله ، وبأنها كتب هداية للناس وإنقاذ لهم من الظلمات :

* قال تعالى في وصف التوراة : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ... ﴾ (٣) .

* وقال سبحانه في وصف الإنجيل : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) .

٤- أنصف القرآن الكريم الآخر وشهد لمن يمتاز بمكارم الصفات :

* ففي حفظ بعضهم الأمانة قال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

* وفي اتباع بعضهم الحق قال سبحانه : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٦) .

* وفي موقف بعضهم من المسلمين قال عز وجل : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الكهف ٢٩ .
(٢) الكافرون ١- ٦ .
(٣) المائدة ٤٤ .
(٤) المائدة ٤٦ .
(٥) آل عمران ٧٥ .
(٦) الإسراء ١٠٧ - ١٠٩.
(٧) المائدة ٨٢ .

وهذا بالتأكيد مغاير لموقف بعضهم الآخر من المسلمين الذي وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ (١)

٥- وفي السنة النبوية لنستمع إلى هذه القصة : { اسْتَبَّ رجلان ؛ رجل من المسلمين ورجل من اليهود قال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي ، فذهب اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلم فسأله عن ذلك فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تخيِّروني على موسى ؛ فإن الناس يُصْعَقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ جانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله }(٢)

(١) النساء ٥١ .
(٢) رواه البخاري في كتاب الخصومات باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلمين واليهود .

الحوار في اللغة من الحَوْر : وهو الرجوع عن شيء إلى شيء ، والحَوْرُ : النقصان بعد الزيادة لأنه رجوع من حال إلى حال ، والحِوارُ : الجواب ، والمحاورة : المجاوبة ، يقال كلَّمْتُه فما أحارَ إليَّ جواباً : أي ما رد إليَّ جواباً . واستحاره : أي استنطقه . والتحاور : مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة (١) .
ولا بد من الإشارة إلى أن الحوار والمحاورة تعني المشاركة ووجود طرفين أو أطراف أثناء المخاطبة والمحادثة ، فالحوار تبادل في الخطاب ، وتناوب في الجواب .

تنبع الحاجة الماسة إلى الحوار من كونه أول متطلبات تبليغ دين الله ورسالاته ، فبغير الحوار تتحول الدعوة إلى حديث مع النفس ، وإلى حوار من طرف واحد لا صدى له ولا مجيب ، وربما وصل الأمر إلى حد محاولة كل طرف غزو الطرف الآخر أو دحره وغسل فكره ، والبديل عنه نشوب الصراعات والنزاعات في العالم ، وعندها سيعيش في صراع دائم ، ولن ينعم الكون بالتجاوب أو التعارف الذي دعا الله إليه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وغني عن البيان أن الحوار بين الحضارات والأديان لا يهدف إلى التقريب أو التوفيق بين العقائد أو ثوابت الأحكام – فهذا غير ممكن لتباينها في معظم الفروع والمسائل – لكن الحوار يكون بين أتباع الحضارات والأديان ؛ لإيجاد أرضية مشتركة من الفضائل والقيم الدينية التي تحث على التسامح والتعايش ، ونبذ الفتن والصراعات الدينية ، والحفاظ على وحدة الصف في المجتمع الواحد والأمة الواحدة ؛ لا بل في الكون كله . فالحوار والنقاش بين المختلفين يهدف إلى إيجاد مساحة من الود والاتفاق ، وقدر مشترك من التعامل الإنساني في إطاره ، وهو إيجابي ما دام صادراً من أجل بناءٍ أفضلَ لمدنيةِ الإنسان وحضارته ، ومن هنا تأتي أهميته ، فهو ركيزة للتفاهم والتعايش مع الآخر في أجواء السلام والتسامح ، رغم الاختلاف معه في الدين والفكر ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣)

وأولى مراتب الحوار تبدأ في أعماق النفس بمحاسبتها ، وهذه هي النفس اللوامة التي تحمل صاحبها على الحق حتى تبلغ به مرحلة الاطمئنان .
ومن مراتبه ما يجب أن يكون بين أفراد المجتمع الإسلامي الذين تتعدد آراؤهم واجتهاداتهم المختلفة ؛ مع محافظتهم على التماسك ووحدة الصف ونبذ العنف ؛ لصالح قوة الأمة وبنيان المجتمع ، فيجب عليهم أن يتعاونوا فيما اتفقوا عليه ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه ، وهذه علامة الإيمان الكامل والانتماء الصادق إلى الإسلام ، والمعية الخالصة للرسول صلى الله عليه وسلم التي وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٤) . وبما أن المودة أهم الأجواء التي يجب أن تسود الحوار ؛ فالله تقدست أسماؤه وصف ذاته سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (٥) ، لكن بعد آيتين وصفها ثانية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ (٦) .

---

(١) ابن منظور : محمد بن مكرم : لسان العرب ٤/٢١٧ -٢١٩ ، دار صادر – بيروت – ط١ .
(٢) الحجرات ١٣ .
(٣) فصلت ٣٤ .
(٤) الفتح ٢٩ .
(٥) البروج ١٢ .
(٦) البروج ١٤ .

وأهم مراتب الحوار ما كان مع المخالف ، أفرد لها القرآن الكريم آيات ومواضع ظاهرة ، وغلب فيه ورود لفظة الجدال ومشتقاتها ، أما مادة الحوار فهي أقل وروداً ، ومثالها قصة صاحب الجنتين في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ (١) .

١- أوّل نماذج الحوار التي سجلها القرآن الكريم ما دار بين رب العزة سبحانه وبين ملائكته في مسألة مستحق الاستخلاف ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٢) .

فقد أبدى الملائكة رأيهم في المسألة بلهجة مفعمة بالطاعة والتسليم لخالقهم عز وجل ؛ مُعَرِّضِينَ بأهليتهم لهذه المنزلة الرفيعة ، فلم يمنعهم ربهم سبحانه من ذلك ، بل وضح لهم سبب استحقاق آدم لها

٢- أما ثانيها فمحاورة إبليس ربَّه حول تفضيل آدم عليه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٣) .

إنه حوارُ مَنْ يُعالِن بالعصيان ، ويصرح بالاستعلاء ، لكنه لا يُواجَهُ بالإرهاب أو الإسكات ، بل يسجله القرآن الكريم في آيات تتلى إلى يوم الدين ، تعلمنا أن نمكن المخالف إبداء رأيه وتبرير موقفه .
٣- وقدوتنا في الحوار رسل الله المصطفَيْن الأخيار ، المتميزين بقوة الحجة والإيمان ، عكس أقوامهم الذين كانوا لفرط عجزهم يلوّحون بالقوة ، ويتهربون من الحوار عند الإفلاس من الإقناع أو الاقتناع .

ولنا في محاورات سيدنا إبراهيم دروس وعبر في الصبر والأمل :

* فقد حاور قومه : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

* وتدرج معهم مثبتاً وحدانية الله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥) .

* وحاور أباه باراً به مشفقاً عليه : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ

---

(١) الكهف ٣٧ .
(٢) البقرة ٣٠-٣٣ .
(٣) الأعراف ١١-١٢ .
(٤) الشعراء ٧٠ - ٧٧ .
(٥) الأنعام ٧٦ – ٧٩ .

عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (١) .

* وحاور النمرود متحدياً جبروته : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

٤- التزم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته وحياته بالحوار مع الجميع بغير استثناء :

* فابتدأ بقومه منفذاً أمر ربه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (٣) ، فلما عرض عليهم الدعوة رد عليه أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ؛ ألهذا جمعتنا ، فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٤) .

* لم ييأس ولم يقاطع ، بل واصل مهمته في الحوار والتبليغ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

* ورُغم الضغط العائلي عليه لدى عمه ونصيره أبي طالب ؛ إلاّ أنه رد بموقف المؤمن الثابت الواثق من ربه : { يا عم والله لو وضعتَ الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه } ، فلما رأى عمه إصراره وصلابته شدّ على يمينه مؤازراً وقال : يا ابن أخي امض على أمرك وافعل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً (٦) .

ورب قائل يقول : إن التقارب والحوار في مكة إنما كان لأنه صلى الله عليه وسلم مستضعف يتخطفه الناس ، لكن استقراء السيرة في المدينة يظهر أنه النهج الذي اختطه أيام قوة دولته وانتصار دعوته :

* فقد حاور اليهود والنصارى على وجه الخصوص استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (٧) . ولم يخلُ حواره معهم من المحبة والحجة والحكمة ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٨) .

حضرته يوماً جماعة من اليهود ؛ فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن صفات نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي ، قال : { سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعُنّي على الإسلام " قالوا فذلك لك ، قال " فسلوني عما شئتم " ، فلما أخبرهم بما يعرفونه ويوقنون به قال " اللهم اشهد عليهم } (٩) .

{ واجتمعت عنده نصارى نجران وأحبار اليهود ؛ فتنازعوا عنده في سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فتلا عليهم القرآن وبين لهم وجه الحق في نزاعهم } (١٠) ، ولما قدم عليه وفد نجران { دخلوا عليه مسجده بعد

---

(١) مريم ٤٢-٤٧ .
(٢) البقرة ٢٥٨ .
(٣) الشعراء ٢١٤ .
(٤) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن باب وأنذر عشيرتك الأقربين .
(٥) المائدة ٦٧ .
(٦) رواه البيهقي وابن إسحق ، انظر الحميري ، عبد الملك بن هشام بن أيوب : السيرة النبوية ١٠١/٢ ، دار الجيل – بيروت – ط١ ، ١٩٩١.
(٧) العنكبوت ٤٦ .
(٨) آل عمران ٦٤ .
(٩) رواه أحمد في مسند بني هاشم .
(١٠) رواه ابن إسحق ، انظر ابن هشام : السيرة النبوية ٩١/٣ .

صلاة العصر ، فحانت صلاتهم فقاموا يصلون في مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله : دعوهم ، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم } ([1]) .

* وحاور المشركين واستقبلهم في مسجده ، ولم يؤثر عنه أنه رفض وجودهم أو لقاءهم . وحاور البعيد عنه فأرسل السفراء والكتب إلى الملوك والزعماء في دول زمانه ، وعقد معاهدات مع عدد منهم ، وكان في حواراته ملتزماً أمر الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ([2]) .

(١) رواه ابن إسحق ، انظر ابن هشام : السيرة النبوية ١١٤/٣ . .
(٢) النحل ١٢٥ .

انطلاقاً من كون التعامل يقتضي وجود طرف ثان – لأن التعامل على وزن تَفاعُل ؛ وهي حسب الميزان الصرفي في اللغة العربية لفظة تفيد المشاركة – فإن التعايش مع الآخر حدد الإسلام العلاقة مع الآخر ؛ ولم يُقِمْها على الحرب والقتل بسبب اختلاف الدين ؛ وإلاَّ لقاتل غير المسلمين كافة ولم يقبل منهم أي عقد أو عهد أو ذمة ؛ بل لما اعترف بحقوقهم ولما قبل وجودهم .

لكنه شرع الأحكام التي تضبط تعايشهم مع المسلمين إذا وجدوا معهم في مجتمع واحد :

فإن كانت إقامة الآخر لفترة محدودة فله عقد الأمان الذي يلزم المسلمين جميعاً الوفاء به ، ويحرم عليهم غدره ما لم يبدأ هو بنقض العهد .

والمستأمنون يدخلون بلاد الإسلام للزيارة أو التجارة أو السفارة أو السياحة ، ويسري عليهم الجانب المدني من قانون الدولة الإسلامية ، باستثناء ما يتعلق بعقائدهم وعباداتهم ومآكلهم وأحوالهم الشخصية . وتلتزم الدولة توفير احتياجاتهم ورفع الظلم عنهم وحمايتهم من كل عدوان ما داموا في ديارها ، قال صلى الله عليه وسلم : { ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة } (١) .

أما إن كان كتابياً فإقامته في المجتمع الإسلامي دائمة وله عقد الذمة ، وتحكم التعايش والتعامل معه في شتى جوانب الحياة قواعد الشرع وأحكامه التفصيلية :

١- يتمتع هذا الآخر بحق المواطنة في المجتمع المسلم ما دام محافظاً على انتمائه لمجتمعه وولائه لوطنه ، بعيداً عن الارتباط بمن يتربص به سوءاً أو تدميراً ، وعلى ذلك فإن له ما للمسلم من حقوق على الدولة والمجتمع ، وعليه ما عليه من التزامات تجاههما حسب الأحكام التي أقرها الشرع ، كل ذلك مستمد من الصحيفة التي تضمنت ميثاق المدينة المنورة ودستور أهلها ، حيث وادع فيها اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم ، ومما جاء في هذا الدستور : { وإنه من تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم } (٢) .

٢- الأصل في العلاقة مع الآخر - وبالأخص من يقيم خارج المجتمع الإسلامي - الأمان والسلام وتجنب الصراع والمواجهات العسكرية إلاَّ إذا بدأنا هو بالقتال والعدوان ، قال تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) .

هذا إذا كان الآخر مستعداً للتقبل والاحترام ، ويبادلنا التقارب والتعايش والحوار ، أما إذا كان يتبنى لغة الاستعلاء والاستكبار ، فحينها ستختلف المواقف والأفكار ، قال تعالى : ﴿ وَ□لَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ □لْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (٤) .

٣- يباح للمسلم أكل طعام أهل الكتاب وتزوج نسائهم ، ويثبت للزوجة الكتابية ما يثبت للمسلمة من حقوق زوجية ، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (٥) ، ومعلومة هي العلاقة الحميمة التي تربط بين الزوجين ، وقيامها على المودة والرحمة والعاطفة الدافئة الدائمة بديمومة العقد رغم اختلاف الدين .

٤- وفي المجال القضائي :

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء باب تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات .
(٢) رواه ابن إسحق ، انظر ابن هشام : السيرة النبوية ٣١/٣ .
(٣) الممتحنة ٨ - ٩.
(٤) الشورى ٣٩ .
(٥) المائدة ٥ .

* اعتبر الإسلام شهادة الآخر ـ تحملاً وأداء ـ وقبلها في الخصومات بشروط محددة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ... ﴾ (١) .

* واعتبر الإسلام يمين الآخر وسيلة لإثبات ادعائه في الخصومات ، قال الأشعث بن قيس : { كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني ، فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : { ألك بينة ؟ قلت : لا ، فقال لليهودي : احلف ، قلت يا رسول الله إذاً يحلف ويذهب بمالي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ﴾ (٢) .

* وساوى الإسلام أتباعه ومخالفيه في الحكم بالعدل ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

* { بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة إلى فيء خيبر لتقدير ثمر نخيلها ففعل ، ثم قال عبد الله لأهلها : يا معشر اليهود أنتم أبغض الخلق إليَّ ؛ قتلتم أنبياء الله عز وجل وكذبتم على الله ، وليس يحملني بُغْضِي إياكم على أن أحيف عليكم } (٤) .
* وحتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجد غضاضة في التعامل معهم ، فقد { اشترى النبي صلى الله عليه وسلم طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد } ، بل لقد { توفي صلى الله عليه وسلم وهي مرهونة عنده } (٥) .
٥ـ وفي مجال العلاقات الاجتماعية يباح التزاور وحسن الجوار وعيادة المريض ومواساته :
* فقد { كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده } (٦)
* وروي أن عبد الله بن عمرو ذبحت له شاة ؛ فسأل أهل بيته : أهديتم لجارنا اليهودي ؟ أهديتم لجارنا اليهودي ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : { ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه } (٧) .

أما العلاقة مع الآخر إن كان من خارج المجتمع الإسلامي ؛ فقد أجاز الإسلام عقد المعاهدات معه في المجال السياسي والعسكري بشروط محددة ؛ ناهيك عن المجالات الإنسانية الأخرى ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨) ، وأوضح مثال على ذلك صلح الحديبية ؛ أبرمه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم مع مشركي قريش يوم أن أبدوا الرغبة في ترك الحرب مع المسلمين ، ولم ينقضه المسلمون بل نقضته قريش وحلفاؤها ، لأن الإسلام أصلاً يحرم نقض العهد غدراً بالمعاهدين قبل إعلامهم بفترة كافية ، قال تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ (٩) ، فيجب منحهم فرصة كافية للتفكير والتقدير ليحزموا أمرهم ويتخذوا قرارهم ، وليصفوا حساباتهم ويتصرفوا في ممتلكاتهم . فإذا التزم الآخر ببنود المعاهدة فيجب على الدولة ومواطنيها

---

(١) المائدة ١٠٦ .
(٢) رواه البخاري في كتاب الخصومات باب كلام الخصوم بعضهم في بعض .
(٣) المائدة ٨ .
(٤) رواه أحمد في باقي مسند المكثرين .
(٥) رواه البخاري في كتاب البيوع باب شراء النبي صلى اله عليه وسلم بالنسيئة .
(٦) رواه البخاري في كتاب المرضى باب عيادة المشرك .
(٧) رواه الترمذي في كتاب الصلة باب ما جاء في حق الجوار .
(٨) الأنفال٦١ .
(١) التوبة ٢ .

حفظ عهده والوفاء بما استحق عليها تجاهه حتى انتهاء المدة ، وبعد ذلك ينظر في تمديد العهد أو تجديده ، قال تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

بل إن الإسلام ذهب إلى أبعد من هذا ؛ فلو طلب المشرك غير المستأمن فرصة للتعرف إلى دين الله فيجب إيواؤه وكفالة أمنه حتى وإن ظل على شركه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وفي المجتمع الإسلامي المدني ظهر صنف غير معهود من المخالفين ، إنه المنافق الذي تستر بالإسلام ، وانضوى في مجتمع الإسلام ؛ ليتمكن من الكيد له ولدينه ولنبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلى الرُّغم من أن هذا المخالف أخطر صنف على الإسلام ودينه وبنيانه لكونه آتٍ من عمق المجتمع ومن صميمه ؛ إلاَّ أنه عمل على استيعابه واحتوائه وتجنب الصدام معه ، فأفسح له المجال للمشاركة في فعاليات حياة المجتمع المسلم ؛ في العبادات والمعاملات والجهاد ، فلم يصدر عنه غير التثبيط والإحباط والفت في العضد والطعن في الظهر ، فقوبل بالصبر وسعة الصدر ، قال عبد الله بن أبي زعيم المنافقين مستغلاً خلافاً بين أحد المهاجرين ورجل أنصاري : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : { دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه } (٣) .

التعامل مع الآخر في العصر الحاضر

أظهرت الصفحات السابقة الموقف النظري والتطبيقي للإسلام من مسألة حوار الحضارات ، وبينت أن العلاقة التي يسعى إليها هي علاقة التعايش بينها ، والمنتظر ـ مع نمو هذه العلاقة التعايشية التي يكرسها

---

(٢) التوبة ٤ .
(٣) التوبة ٦ .
(٤) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن باب قوله تعالى ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ .

الإسلام ـ أن تمتد لتشمل مساحة أكبر من المجتمعات البشرية ؛ بنوع آخر من النظم ونماذج جديدة من العلاقات الخارجية .

ولكن ؛ وفي لحظة صدق مع النفس ، ووقفة محاسبة للذات نتساءل : هل نستوحي اليوم توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية في تقبلنا للآخر ؟ وهل نلتزم منهج الإسلام وتعاليمه وروح نصوصه في تعاملنا معه ؟

ومما يؤسف له أن الأمة اليوم تنكبت طريقها ، ...
فقدمت للعالم نماذج مشوهة للإسلام وتصوراته الفكرية ...
...

إن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى تبني أسس الإسلام وثوابته في التعامل مع الآخر ؛ لتكون المُوَجِّهَ للإنسان المعاصر والمنطلق له في حياته ونظمه ومؤسساته ، ولن تتأتى له القناعة التامة بذلك إلاَّ إذا كنا نحن المسلمين صورة مشرقة للإسلام ؛ بأن نترجم قواعده ومبادئه إلى عمل وسلوك في حياتنا وتعاملاتنا ، وبأن نستلهم تشريعاته وتفصيلاته لصياغة موقفنا من الآخر ، ولصبغ نظرتنا إليه بالصبغة الإسلامية الراسخة في القلوب منا والضمائر .

ولتحقيق هذه الغاية نرى أننا ملتزمون بالوصول إلى الآخر ؛ إلى ذاته ووجدانه ، وفي رأيي لا سبيل إلى ذلك بغير مخاطبته ومناقشته ومحاورته .

لذلك أقول :

لا بد من توافر غاية سامية للحوار ؛ هي إيجاد مساحة مشتركة يستطيع الجميع من خلالها التفاهم والتعايش معاً في ظل الأخوة الإنسانية ، والتمتع بحقوق المواطنة المتساوية .

ونجاح هذا الحوار رهن بالقدرة على التفاعل وتبادل الخبرات والمفاهيم ، ورهن بالتحلي بحسن الإصغاء والْتزام أدب الحديث ؛ لضمان تواصله في أجواء من الارتياح والاطمئنان بعيداً عن الانفعال ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

فحسن الخطاب ولين القول وتجنب الاستفزاز أو تسفيه الآراء ، وتجنب التوتر النفسي والعنف اللفظي ؛ كان أبرز سمة في حوار الأنبياء مع أقوامهم ، فقد أمر الله تعالى موسى وهارون بحسن خاطبة فرعون بقوله : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (٢) .

ولا بد من صدور الحوار عن القاعدة القائمة على أن الحق غاية كل عاقل ومقصوده ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : { الكلمة الحكمة ضالَّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها } (٣) ، ولا بد من صدوره عن دافع الاستجابة لأمر الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤)

أرسى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أسمى أنبل أخلاقيات الحوار ؛ لأنها أولاً مطلب رباني أوصى الله به رسوله في كثير من الآيات القرآنية ، ولأنها ثانياً خُلُقٌ نبوي تحلى به صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالة ربه ، فهو كما وصفه ربه تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾ (٥) ، والْتزم فيه أوامر ربه في تطبيق الأساليب والسلوكيات التي اتبعها في الحوار مع المخالفين :

١- أن يكون حواراً تبادلياً يعطي كلا الطرفين فرصة التعبير ؛ بعيداً عن القهر أو العنف أو الضعف ؛ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾

---

(١) فصلت ٣٣ .
(٢) طه ٤٣- ٤٤ .
(٣) رواه الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في فضل العلم على العبادة .
(٤) الحج ٦٧ .
(١) القلم ٤ .

(١) ، فلفظة الحوار تدل على المشاركة وتعدد الأطراف المتحاورة ، وعلامة ذلك احترام الرأي الآخر وعدم إسقاطه أو تسخيفه أو تسفيه صاحبه ؛ قال تعالى : ﴿ لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ ﴾ وقال سبحانه في ذات الآية : ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ (٢) ، والاعتراف بحق صاحبه في تبني الرأي الذي يؤمن به ، وفي الدفاع عنه وتحمل المسئولية عنه وإن كان خطأ ، مع التنبيه إلى أن احترام حرية الاختيار ليست احتراماً للخطأ نفسه ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .

٢- البدء في الحوار بالأفكار المشتركة بين الطرفين ، والتدرج فيه بمنطقية عقلانية وتجنب ما يفسده ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) وبهذا يمكن أن ينتهي الحوار بالإيجابية والاتفاق على نتيجة وإن كانت تَمَسُّكُ كلِّ طرف بقناعته ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

٣- الالتزام بضوابط الحوار بالبعد عن الهوى والتعصب للرأي الشخصي أو التمسك بالرأي المسبق ، فالهوى يبعد صاحبه عن الموضوعية ، والتعصب يعميه عن قبول الحق ، والتمسك بالرأي المسبق يؤول إلى عبثٍ سخيف وجهدٍ ضائع ، وهذا يضعف الحوار ويوقفه ، قال صلى الله عليه وسلم : { ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك } (٦) .

٤- الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد حاور المؤمنين والمنافقين ، وحاور المشركين وأهل الكتاب في جميع الميادين والمواضيع . فكلمته الأولى بينه وبين قومه كانت حواراً دام ثلاثة عشر عاماً ؛ متبعاً أفضل أسلوب في الحديث والخطاب ، مبتعداً عن كل ما ينفر الآخر ويوغر صدره إن الله أدبني فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال : ﴿ خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٧) .

فالحوار الذي يقوم على الصدق وبلاغ ما أمر الله بتبليغه ، والذي يقصد به إظهار الحق بعيداً عن الإكراه أو إظهار الشهرة والتغلب على الخصم ، والمستند إلى قوة الحجة والبيان وصدق البرهان والعلم بالقرآن ، فهو المحمود الذي يندب إليه الشرع ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (٨) .

أما الحوار الذي يخضع الآخر إلى فكر أوحد منبثق من رأي أوحد ويقضي على ما سواه ؛ للوصول إلى السيطرة على العالم والهيمنة على المجتمع الدولي بأسره فهذه هي العولمة المرفوضة ؛ ما دامت ترفض

---

(٢) النساء ١٣٥ .
(٣) الحجرات ١١ .
(٤) سبأ ٢٤-٢٧ .
(٥) آل عمران ٦٤ .
(٦) يونس ٤١ .
(٧) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة المائدة ؛ في تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .
(٨) الأعراف ١٩٩ .
(١) لقمان ٢٠ .

الخصوصيات الثقافية للمجتمعات ، وتفرض عليها نظمها وتشريعاتها واتِّجاهاتها في تبعية مقيتة لن يكتب لها الدوام .

وإذا أردنا للحوار أن يكون علمياً بعيداً عن المهاترات فلا بد من ارتباطه بعفة اللسان وحسن الإصغاء ومجانبة الغرور والتعالي على العباد ، فالله تعالى وحده العليم بذات الصدور المطلع على أعمال القلوب ؛ قال تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (١) .

الخاتمة

إن من ينظر حوله اليوم يوقن بوجود قوة تهدف إلى بسط هيمنتها وسيطرتها على البشرية ، أداتها في ذلك فرض فكرها وثقافتها ، وفي سبيل تحقيق غرضها فإنها ترفع شعار عالمية الثقافة التي يجب أن تسود الكون ، وتحاول دائبة إقناع الآخر ـ وبالأخص في العالم الإسلامي ـ بالخضوع وعدم جدوى التصدي لفكرها ، وأوجدت لها أنصاراً ومراكز قوى ينظّرون لشعارها ؛ بدلاً من لجوئها إلى القوة العسكرية التي تفضح النوايا والمؤامرات ، وتستنهض همم الشعوب للمقاومة .

ولعل من المخلصين مَن يرى في الدعوة إلى حوار الحضارات والتعايش مع الآخر ما يخدم هذه المؤامرة الاستعمارية الخبيثة ، فيهاجمها وينادي بالإحجام عن المشاركة فيها .

---

(٢) النجم ٣٢ .

ولو لم يكن الإسلام سباقاً في هذا المضمار ؛ فإننا لا نرى أن مقاطعته من الحكمة في شيء ، فكيف بنا وقد مهد لنا الإسلام بنصوصه وتطبيقاته طريق الحوار ورسم معالمه وحدد ملامحه ؟

ومع ذلك ؛ وفي غمرة التوجه العالمي إلى التقارب والتعايش بين الحضارات ؛ فإننا نحذّر من حوار يفرض بالقوة القاهرة ، أو يتخذ سبيلاً لتمرير المخططات ؛ الرامية إلى محاربة الإسلام ومحو أثر حضارته ، واستغلال أسباب المِكْنَة والسلطة لتحقيق مآرب الصهيونية في تهويد الأرض الفلسطينية ، وتكريس الوجود اليهودي فيها .

فالحوار الذي ينتهي بإخضاع الآخر لفكر أوحد وبالقضاء على ما سواه ؛ والهيمنة على العالم هو العولمة المرفوضة ما دامت تلغي الخصوصيات الثقافية للمجتمعات ، وتفرض عليها نظمها وتشريعاتها واتِّجاهاتها ؛ في تبعية مقيتة لن يكتب لها الدوام . بل ستواجَهُ بموجات المناهضة والمعارضة وتيارات لا تتوقف من العنف .

وهذا بالضبط ما تعانيه منطقتنا ، ففيها صورتان للعنف :

<u>الصورة الأولى</u> : العنف البادئ بالإرهاب ؛ والمتمثل في الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية ، الذي يستخدم أساليب القمع والقتل والإذلال ؛ لإرغام الشعب الفلسطيني على الخضوع والاستسلام .

<u>الصورة الثانية</u> : العنف المضاد ؛ والمتمثل في مقاومة الشعب الفلسطيني ودفاعه عن أرضه وكرامته ، ونضاله لنيل حريته ، ورفضه الخضوع للمحتل وإرادته .

وظالم من يعتبر الصورة الثانية عنفاً أو إرهاباً ؛ فهي دفاع عن الحقوق والمقدسات والحرمات ؛ وهو دفاع مشروع ضد كل غازٍ محتل حتى يرحل عن الوطن ؛ أقرته الشرائع السماوية والأعراف الدولية والمواثيق العالمية ولا يمكن تجاهله ، فالإنسان مفطور على رد العدوان ، والبادئ أظلم .

وعلى من يسعى إلى إقرار السلام الجاد في أية منطقة في العالم أن يفرق بين الإرهاب وبين حق الشعوب في مقاومة الاحتلال ، وإلاَّ فالبديل أن يستعر الحقد في القلوب ؛ وتؤجج الممارسات القمعية نار الغل في النفوس ؛ مما يعني دوّامة لا تنتهي من سفك الدماء ، فلن يقر للمظلوم الأعزل قرار وهو يرى حقوقه المهدرة ، ويرى الوقفة الظالمة للقوى العالمية مع جلاده المدجج بالسلاح مدافعة عن وجوده ؛ فيشعر بالإحباط ، ولا يجد أمامه إلا المقاومة .

فكيف يمكن لأبناء الشعب الفلسطيني أن يروا الإرهاب يمارس ضدهم بشكل يفوق جرائم النازية ؛ وبالرغم من ذلك يُطلَبُ إليهم مواجهتها بالتسامح ! وكيف يتوقع من الشعب الفلسطيني أن يكون مسالماً أمام مظاهر البطش ؛ يتلقى اللطمات مبتسماً في وجه عدوه ؛ يدير خده الأيسر لتلقّي المزيد منها بتهدئة وضبط للنفس !

وهل يمكن اعتبار مساندة الدولة المعتدية التي قام كيانها على تشريد شعب وتهجيره من أرضه ؛ واستقدام المستوطنين من يهود العالم مكانه - هل يمكن اعتباره داعماً للتقارب والتعايش ؟ وهل يمكن أن يكون الإرهاب المنظم الذي يمارس ضد الشعب الفلسطيني دليلاً على صدق النوايا والرغبة بالسلام ؟

ومع ذلك لم يدخر الشعب الفلسطيني جهداً في سلوك كل سبل المقاومة السلمية ، فتمسك بأرضه وملأها بالحياة ، وتلقى العلم ودعم التنمية والازدهار ، وخرج في مظاهرات ضد الاحتلال ، وجنَّد وسائل الإعلام والصحافة وعرَّف العالم بقضيته العادلة ، وأوصل صوته إلى المجتمع الدولي ومنظماته العالمية ؛ واكتسب تأييد الشعوب المتعاطفة مع قضيته العادلة ، وذهب إلى مدريد وأوسلو وكامب ديفيد ، ووضع يده في يد المغتصب وفاوضه ! واستجاب للنداءات والوساطات فأعلن التهدئة من جانب واحد رغم القصف والنيران .

فماذا فعل الآخر ؟

إنه على النقيض من ذلك ، يمعن في سياسته الإرهابية ، ويحاول بالخداع والتضليل والتسويف فرض سلام ناقص أحادي الجانب ؛ مما سيؤدي حتماً إلى نشوب الحروب المدمرة من جديد .

إن على الصهاينة أن يدركوا أن السلام القائم على الحق ضروري لهم أكثر من غيرهم . فعليهم السعي بإخلاص وجدية إلى تحقيقه ، وعليهم ألاَّ ينسوا الحقيقة الثابتة : إن القوي لن يظل قوياً إلى الأبد ؛ والضعيف سيمتلك القوة وأسبابها يوماً ؛ ومن يعتمد على البطش والقوة والإرهاب سينهزم وينهار . فالضمان الوحيد

للقضاء على العنف ومحاربة الإرهاب هو إنهاء الاحتلال ، وإيقاف القمع المنظّم والإبادة الجماعية والتطهير العرقي ، وإقامة السلام الذي يضمن الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني ؛ بما فيها عودة اللاجئين الى أراضيهم وديارهم وإقامة دولتهم المستقلة ذات السيادة الكاملة .

المراجع

١- القرآن الكريم
٢- البخاري : الإمام محمد بن اسماعيل ، الجامع الصحيح المسند .
٣- البيهقي : الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ، السنن الكبرى والسنن الصغرى .
٤- الترمذي : الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة ، الجامع الصحيح .
٥- الحميري ، عبد الملك بن هشام بن أيوب : السيرة النبوية ، دار الجيل – بيروت – ط١ .
٦- ابن حنبل : أحمد بن محمد ، المسند .
٧- ابن منظور : محمد بن مكرم الإفريقي ، لسان العرب ، دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى .
٨- النيسابوري : الإمام مسلم بن الحجاج القشيري ، الجامع الصحيح .
١٩٩١ .

٩ – مجموعة مقالات منشورة على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) .